جاؤوا لرؤيتك

كنت أستعد للخروج الى السوق مع أختي وصديقتي لشراء ما يلزمني من الأقمشة قبل أن أبارح دمشق عندما حضر أخي معتصم وجلس ينتظرني في غرفة الإستقبال..

أخرج من جيبه برقية وهتف بي:

-الى متى هذا التأخير؟ ان أهلك قلقون بسبب غيابنا الطويل. ولكنه لم يلبث أن وقعت عينه على الخاتم بيدي وأنا أسوي شعري، فأصدر آهة تعجب، ثم أردف باستياء:

-أهذه هي الموضة الجديدة؟ ضحكت وقلت:

-افعل مثلنا عندما تلتقي يوما بمن تعجبك!

تبدّلت لهجة أخي الى اهتمام يشوبه قلق وهو يستفسر عن عفيف وكيف تعرفت اليه، وفيم اذا كنت أحببته حقا أم هي طفرة عاطفية.. كان أخي معتصم يحب أن يبدو أخا ناصحا خبيرا في شؤون الحب وأحوال الرجال.. فقلت وأنا أربت على وجهه ضاحكة:

-لا تكثر من الأسئلة، ستراه، وسترى بأنني أحسنت الإختيار!

ضحك عفيف ونحن نرتقي التلة الى الجناح وقال:

-ان أهلي جاؤوا ليروك..

وأحسست برهبة تجفل قلبي وهو يعرفني على والده، كان منزويا وحده على كرسي أمام باب الجناح.. لم يبتسم لي ولم يرحب بي اذ سلّمت عليه.. لم ألبث أن استجمعت شجاعتي، ان أحدا لايمكن له أن يخيفني، انني أعرف كيف أجعل الملامح الصلبة تلين والقلب النفور يأنس.. انه كوالدي وما كان يستهوي والدي من حديث يستهويه أيضا، لماذا؟ أتراه غاضبا لأن عفيف خطبني دون علمه وأخذ رأيه؟ أتراه مستاءا لأنه اختار لعفيف واحدة من بنات أصدقائه؟ أتراه بحاجة الى مساعدة عفيف المادية؟ وبدا في وجه عفيف بالرغم من محاولته الإبتسام أنه يتألم من تصرف والده، وأمسك بيدي وذهب الى الجهة الأخرى من الجناح حيث عرفني على أخواته الثلاثة، كن ينسجن وينظرن الى الأسهم النارية، وبالرغم أن

استقبالهن لي لم يكن فاترا، الاّ أنه أيضا لم يكن فيه حماس كبير.. عجبت في أمري، هل التحفظ طبع في هذه العائلة أم أن هناك ما يسوؤهم مني؟

أبديت إعجابي بما ينسجن، وسألتهن عن انطباعهن عن المعرض فكن يجبن باقتضاب، وهن مشغولات بالنسج دون أن ينظرن الي.. لم تكن سوى ابنة أخيه الأكبر تبتسم لي دون أن تتكلم، ولاحظت أن لها ابتسامة حلوة وأسنانا نضيدة..

لم يلبث أن أفرج جو الصمت حين قدمت زوجة أخيه صلاح وأولادها وهم صبية ثلاثة وبنت صغيرة، كنت أدير ظهري الى مرتقى التل ولم ألبث حين التفت ورأيتها أن ذكرت بأنني أعرفها.. هتفت بي متهللة حين رأتني: "أنت! أية مصادفة سعيدة هذه!" وأردفت وهي لا تزال تشد على يدي:

-تهانينا، تهانينا، من كان يظن أننا سنصبح أقارب؟

عرفتني على أولادها كان أكبرهم في العاشرة واسمه عمر سلموا علي وانفلتوا يتراكضون، وبقيت الصغيرة ملتصقة بأمها.. التفتت الى أخوات عفيف اللواتي تركن نسجهن وقالت:

-انها زميلتنا، درّست فترة من الزمن في كليتنا ثم انتقلت الى اللاذقية، وحدّثتهن عما تركته من أثر لا ينسى بين المدرسات والطالبات..

وعاد عفيف وسلّم على زوجة أخيه فهنأته على اختياره قائلة:

-من أين عثرت على هذه الحمامة؟

لم يجبها، بل كان يبتسم لأصدقائه الذين ارتقوا التل الى الجناح، وتبينت بينهم صديقه الذي صادفنا في المعرض، وعرض شراء خاتمي الخطبة لنا..

ومرت فترة ترحاب وتهنئة وانشغال بال بإحضار الكراسي، وتعالى ضحك عفيف مع رفاقه، انهم يضحكون لأبسط الأسباب وخصوصا عندما يتكلم أنور، فله طريقة في الحديث وإشارات وتعابير تبعث على الضحك مهما قال.. استدارت عيناه فجأة وهو يشاهد في اصبعي الخاتم، ويلتفت ليرى خاتما في اصبع عفيف:

-والله زعلت.. من كل قلبي زعلت.. ألم أقل بأنني سأهديكما خاتمي الخطوبة؟ ماذا سأهديكما الآن؟ شيئا يبقى ويدوم، شيئا لاينكسر ولا يفارقكما وتذكراني به مدى الحياة؟ فأضاف عفيف مازحا:

-ولا يكلف الجيب كثيرا!

وصفقت ضحكات الشلة، وأخذ أنور وهو أستاذ جامعي يكيل الشتائم المضحكة لعفيف فلا يزيده الاّ ضحكا..

-طبعا أنا لا أنعتك بالبخل. ولكنك مهووس بشراء بيت وتريد أن توفر، حتى على صديقك وحبيبك عفيف، وتبخل بهدية مناسبة!

-يا ظالم! والله لن تنال مني شيئا حتى في يوم عرسك! والتفت الي وقال:

-ليساعدك الله على ورطتك مع هذا الخبيث.. والله سيريك نجوم الظهر!

غادرت أخوات عفيف المكان للطواف في المعرض وبقيت أم عمر قربي، وكان عفيف ورفاقه يتحدّثون عن أشخاص لا أعرفهم وعن مقالبهم معهم ويتضاحكون.. فقمت مع أم عمر نتدرج على التل، وشدت على يدي مهنئة وقالت مرة أخرى:

-لا تتصورين سعادتي حين رأيتك، انني أهنئك، ان عفيف رجل نادر، ولا أقول هذا لأنه شقيق زوجي، فهو من ألمع الرجال وأحبهم الى القلوب، وأخلاقه لا مثيل لها.. قلت لها:

-يا أم عمر، أحب أن تكوني لي كأخت كبرى وتصارحيني بكل شيء، هل هناك خلاف بين عفيف وأهله على شيء؟

-لست أدري! أجابت ورفعت كتفيها وحاجبيها بطريقة جعلتني أفهم أنها تدري ولكنها لا تحب أن تتدخل فيما لا يعنيها.. قلت لها:

-انني حريصة على أن أبدأ حياتي الزوجية على وفاق مع الجميع، ان أهل عفيف سيصبحون أهلي، وسأتألم كثيرا ان لم أجد بينهم الحب كما أجده بين أهلي.. سألتها فيما اذا كان عفيف مسؤولا عن إعالة أهله فقالت:

-أبدا كلهم يعملون، أخته الوسطى مديرة في ثانوية، والصغرى تعمل رسامة في المصلحة الجغرافية التي هو رئيسها ومؤسسها وأخوه الأصغر في الجيش، والصغير مدرّب رياضي، وزوجي كان عقيدا وسرّح زمن الشيشكلى فعمل بالتجارة وهوناجح والحمد لله، وعمي له تقاعده كقاض سابق.. لا أحد بحاجة الى عفيف في العائلة!

والتزمت الصمت، وأصرّت عليه فيما عدا ذلك فلم ألح عليها وقلت لنفسي: "عفيف يعرف ما يناسبه اذا كان الأمر متعلقا بفتاة أخرى يخططون لتزويجه منها.. ولما عاد أبناؤها من تراكضهم يلهثون ويلحون عليها لمشاهدة المعرض، اعتذرت وتركتني، فلم أرجع الى حلقة عفيف وأصدقائه بل اقتربت من والده وقد عوّلت أن أبني صداقتي معه.. وحين ودّع عفيف أصدقاءه وجاء الي وجدني في انسجام تام معه، هو يحدثني عن مآثر عمرابن الخطاب، وأنا أصغي اليه بكل جوارحي!

* * *